عالم وطاغية

مسرحية

لفضيلة للدكتور/ يوسف القرضاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه المسرحية جديدة قديمة ، جديدة فى صورتها هذه ، قديمة فى موضوعها نفسه .. فقد كنت كتبتها بشكل آخر منذ سبعة عشر عاما ،وقدر لها أن تمثل وأن تلقى نجاحا وقبولا حسنا ، ثم قدر لها أن تضيع متى فلا أجدها . وهنا تعود بى الذاكرة الى سنة ١٩٤٩ ، اذ كنت أحد الطلاب الذين أختطفتهم " كلاب الصيد " وألقت بنا فى بطون المعتقلات ما بين " هاكستيب " و " جبل الطور " من أرأضى مصر ، وما نقموا منا الا أننا ندعو الى الاسلام الصحيح : دينا ودولة ، عبادة وقيادة ، صلاة وجهادا ، مصحفا وسيفا .

وفى معتقل " هاكستيب " فى الصحراء ، كنت أقرأ فى كتبه الأدب والتاريخ ، فكان مما راقنى وأثر فى نفسى موقف سعيد ابن جبير العالم الفقيه الشجاع ، من الطاغية المتجبر الحجاج بن يوسف . وكان لى شغف بالأدب المسرحى حينذاك ، حتى أننى ألفت ـــ وأنا طالب بالصف الأول الثانوى ـــ مسرحية شعرية ، عنوانها " يوسف الصديق " . لهذا رأيت قصة سعيد مع الحجاج صالحة لأن تكون مسرحية ذات هدف ورسالة ، وخاصة أننا كنا نصارع طغيان الحجاج ، فما أحوجنا الى مواقف كموقف سعيد !! وكتبت المسرحية ، ومثلت فى معتقل الطور .. وضاعت أخيرا .

واليوم يعيد التاريخ نفسه ، وتتكرر المأساة ، ويتجدد الطغيان الاضطهاد لحملة الدعوة الاسلامية ، ولكن بصورة أعنف وأقسى ، وأشد ضراوة ووحشية ، وتبرز مواقف كمواقف سعيد فى مواجهة طغيان أخبث وأعتى وأشد كفرا من طغيان الحجاج .
ومن هنا وجدت الدافع الذى دفعنى الى كتابتها بالأمس ، لا يزال قائما اليوم ، بل هو أقوى ، وبدأت أكتبها من جديد ، مستلهما تاريخ تلك الحقبة الغنية بالبطولات والمواقف الرائعة الى جوار ما حفلت به من مظالم ، وما طفحت به من تجبر وطغيان ، ومستهديا بشخصية سعيد بن جبير ، وما عرف به من علم وايمان وشجاعة وثبات ، سجلتها لنا كتب الأدب والتاريخ والرجال .

ومن هو سعيد بن جبير ؟
أنه امام من ائمة التابعين ، كان ابن عباس حبر الأمة ، اذا سأله أحد من أهل الكوفة فى مسألة قال : أستألوننى وعندكم سعيد بن جبير ؟
وقال فيه أحمد بن حنبل : " قتل سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد الا وهو محتاج الى علمه " .
وقد أنكر سعيد ــ كما أنكر غيره من الفقهاء ــ سيرة الحجاج فى الناس ، وعلوه فى الأرض بغير الحق ،واذلالة للمسلمين ، وسفكه للدماء ، ووأده للحريات ، وانتهاكه للحرمات .
ولهذا لم يكد القائد الداهية الشجاع عبد الرحمن بن الأشعث القيسى يعلن ثورته على الحجاج وبنى أمية ، ويزحف بجنوده على العراق ، حتى انضم اليه كثير من أهل العلم والدين ، وفى طليعتهم سعيد بن جبير وعامر الشعبى ومطرف بن عبد الله بن الشخير .
ودارت المعارك بين جنود ابن الأشعث وجنود الحجاج ، أنتصر فيها الأول فى أول الأمر .. ولكن الحجاج بدهائه وجبروته وصبره ، استطاع فى النهاية أن يتغلب ويهزم ابن الأشعث هزيمة ساحقة فى معركة مشهودة هى معركة " دير الجماجم " فقد فر من بعدها ابن الأشعث ، وقتل من قتل من أنصاره وأسر من أسر وهرب من هرب .
وكان سعيد بن جبير أحد الذين فروا واختفوا ، وكان المفروض فى منطق الاسلام أن يترك هؤلاء الفارون المنهزمون ..ألا يتبع مدبرهم ، ولا يقتل أسيرهم ، ولا يجهز على جريحهم ،ولكن الحجاج لم يتقيد بهذا الحكم ، فقتل كثيرا من الأسرى واتبع كثيرا من المدبرين ، فجاء بهم وضرب أعناقهم . وهكذا طلب سعيدا حتى قبض عليه بعد بضعة

عشر عاما ، ومع هذه المدة الطويلة ، لم يسامحه وكان من أمره ما كان .
ومضى سعيد بن جبير مثلا فى تاريخ الاسلام للعلماء الجاهدين ، والدعاة الصادقين " الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله ،وكفى بالله حسيبا " .

الفصل الأول

(من منظر واحد)

الزمان : عصر بنى أمية فى عهد عبد الملك بن مروان وفى ولاية الحجاج على العراق .

المكان : مدينة واسط بالعراق وقد اختطها الحجاج بين الكوفة والبصرة .
الأشخاص : الحجاج وقد تصدر مجلس الامارة فى زهو وخيلاء وحوله أربعة من حاشيته وحراس مسلحون .
أحد الحاشية : هنيئا لك أيها الأمير ما أحرزت من نصر على أعداء أمير المؤمنين وأعدائك .
ثان : ان العراق كله يتحدث عما أيد الله به الخليفة على يديك وعن هزيمة الفاتن الفتون ابن الشعث وأنصاره المخذولين .
ثالث : لقد غر هؤلاء الطامعين تسامح الأمير ولين جانبه وشفقته على الرعية فجرأهم ذلك على الثورة والعصيان المسلح وكلنهم علموا من هم ومن هو الحجاج .
الحجاج : (فى زهو وكبرياء) لقد ظن ابن الأشعث أنه بانضمام الفقهاء اليه من أمثال سعيد بن جبير يستطيع أن يكسب المعركة ، ولكن هيهات . هيهات . ان سيف الحجاج لا يكسر ، وجند بنى مروان لا يقهر . وعند " دير الجماجم " الخبر اليقين .
رابع : لقد حدثنى أيها الأمير من شهدوا معركة " دير الجماجم " كيف عملت سيوفك فى ابن الأشعث وأتباعه ، وكيف تطايرت رؤوسهم وتناثرت أشلاؤهم ، فلما حقت عليهم الهزيمة استسلموا للأسر أو الفرار .
الحجاج : ان هؤلاء لم يتعظوا بما جرى لابن الزبير وغير ابن الزبير ، على يد الحجاج ، فكان عاقبتهم ما ترون !! فليوقدوا ما شاءت لهم ظنونهم من نار الفتن فأنا لها . أنا لها !!
الثالث : (مرة أخرى) ولكن أيها الأمير اياك أن تأخذك الرأفة بأسرى المعركة الذين لم يستسلموا الا مرغمين وصدورهم تغلى حقدا عليك وعلى بنى أمية . ولا تنس هؤلاء الفقهاء الذين أيدوا ابن الأشعث وناصروه لا بمجرد الكلام بل بحد الحسام ، وبخاصة

ذلك الشيخ المسمى سعيد بن جبير .
الحجاج : نحن بانتظار كتاب من أمير المؤمنين فى شأنهم ولعله يصل اليوم .
الأول : أمير المؤمنين لا يأمر فيهم بغير السيف جزاء ما قدمت أيديهم . ومن سل سيف البغى قتل به.
الثانى : صدقت ، البادى أظلم .
الحاجب : وصل بريد أمير المؤمنين .

الحجاج : هو ما كنا ننتظره ، ايتنى بالكتاب .
(الحجاج يفض الكتاب ، ويقرأ بصوت مسموع) : " سلام عليك وعلى من معك . أما بعد : فكل من شارك فى فتنة ابن الأشعث فى معركة " الجماجم " فأعرضه فى السيف ، فمن أقر منهم بالكفر بخروجه علينا فخل عنه ، ومن أبى وزعم أنه مؤمن فأضرب عنقه . والسلام " .
الحجاج : (لحاجب) ناد رئيس الشرطة . (يخرج الحاجب فيناديه فيدخل)
رئيس الشرطة : لبيك أيها الأمير .
الحجاج : اذهب الى السجن فأحضر المتهمين بعد أن تقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين .
رئيس الشرطة : سمعا وطاعة أيها الأمير . (يخرج ، وبعد لحظات يدخل الحاجب) .
الحاجب : بالباب شيخ كبير يقول : أن له حاجة الى الأمير .
الحجاج : ردوه . ليس هذا هو يوم الحوائج ، وطلاب الحوائج .
الحاجب : لقد انتهره الشرطة فبكى وصاح ، وقال : اما أن تقتلونى ، أو تدخلونى على الأمير . وهو شيخ مقوس الظهر تشتعل لحيته شيبا .
الحجاج : أدخله أذن . (يدخل شيخ وقور ذو لحية بيضاء)
الشيخ : السلام عليك أيها الأمير .
الحجاج : وعليكم السلام . ما حاجتك ؟
الشيخ : لقد أخذتم ابنى منذ سنة أو أكثر ، فلا أنتم أطلقتموه ، ولا أنتم حققتم فى أمره . وان له لأما عجوزا لا يرقا لها دمع من أجله ، وأختا أرملة هى أم لأيتام ثلاثة ، وهو العائل الوحيد لهذه الأسرة كلها ، والاعتماد ـــ بعد الله تعالى ـــ عليه .
الحجاج : (غير مكترث) ولماذا أخذناه ؟
الشيخ : (محتدا) عجبا ! أتحبسون الناس ولا تدرون لماذا حبستوهم ؟ !

الحجاج : (متطلقا) يا شيخ ، المحبوسون كثيرون ، ولكل منهم جنايته وتهمته.
الشيخ : ان ابنى لم يرتكب جناية ولا بعض جناية . كل ما فى الأمر أن أحد أفراد العشيرة قد اتهمه عمالك ، فطلبه ليقبض عليه فلم يجده ، فأخذ ابنى مكانه.
الحجاج : هذا يحدث . والأجرب قد يعدى السليم . فان أردت أن تفرج عن ابنك فأحضر الرجل الهارب . أما سمعت قول الشاعر :

ولرب مأخوذ بذنب عشيره ... ... ونجا والمقارف صاحب الذنب !

الشيخ : (فى صرامة) ولكنى سمعت الله تعالى قال غير ذلك !
الحجاج : وماذا قال ؟
الشيخ : قال تعالى على لسان يوسف : " معاذ الله أن ناخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا أذن لظالمون" .
فهل نصدق الله تعالى أم نصدق الشاعر ؟؟
الحجاج : أفحمتنى أيها الشيخ وقطعت حجتى . أطلقوا سراح ابنه .
أحد الحاشية : يا للعدل !! حيا الله الأمير العادل . ثان : أميرنا وقاف عند كتاب الله .
آخر : الأمير لا يظلم مثقال ذرة .
(يخرج الشيخ .. وبعد لحظات يدخل الحاجب)
الحاجب : رئيس الشرطة قد حضر ومعه المتهمون .
الحجاج : أدخلهم واحدا بعد الآخر .
(يدخل رجل عليه سيما الفروسية ، فينظر اليه الحجاج بغيظ وتجهم) .
الحجاج : أنت أيضا ؟؟ فى كل فتنة نراك ! بالأمس كنت مع ابن الزبير ، اليوم مع ابن الأشعث ، ولو أن فتنة قامت فى بلاد واق لكنت أحد دعاتها . ماذا جنيت أيها المنافق المغرور غير ذل الهزيمة وعارها ؟ !
الرجل : (بثبات واعتداد) والله ما ذل حق ، ولو تالبت عليه الدنيا كلها ، ولا عز ذو باطل ولو طلع من جبينه القمر !
الحجاج : (مهددا) قتلنى الله أن لم أقتلك !
الرجل : ولكن عاملك أعطانى الأمان ، على عهد الله وميثاقه .
الحجاج : وهل رعيت لله عهدا حتى نرعى عهدك ؟
الرجل : أو تغدر بى يا حجاج وتنكث عهد الله من بعد ميثاقه ؟

الحجاج : (متهربا من الاجابة) أخبرنى : ما الذى أخرجك علينا هذه المرة ؟

الرجل : (باعتداد وقوة) ما أخرجنى من قبل ، وسيخرجنى من بعد . انكم تريدونها ملكا عضوضا ونحن نريدها خلافة وشورى . تريدونها كسروية أو قيصرية . ونحن نريدها قرآنية اسلامية .

الحجاج : (ساخرا) أو تعلمنا أنت الاسلام وفيه شابت نواصينا ؟

الرجل : أو يجهل أحد أن سفك الدماء ومصادرة الأموال واخافة المسلمين ، منكر عظيم لا يقره الاسلام ؟

الحجاج : انما نؤدب أمثالك من البغاة المفسدين .

الرجل : وهبنى كنت باغيا ، فهل عاملتنا بما يعامل به البغاة فى شرع الله ؟ ان البغاة لا يتبع مدبرهم ، ولا يقتل أسيرهم ، ولا يجهز على جريحهم ، ولا يؤخذ مالهم .

الحجاج :ولكنكم لستم مجرد بغاة ، انكم كفرتم بنقضكم البيعة وخروجكم على أمير المؤمنين .

الرجل : انما خرجنا على الظلم والطغيان بعد أن تفد صبرنا ، ولم يخرج ابن الأشعث وحده ، لقد خرج معه شعب العراق ، بتقدمه علماء العراق . فهل هؤلاء العلماء كفار منافقون ؟ وأنت وجنودك يا حجاج المسلمون المؤمنون التائبون العابدون ؟

الحجاج : (مغضبا) أتسخر بى أيها الخبيث ؟ لألحقنك بامامك المفتون الفتان ابن الأشعث ، اذهبوا به فأضربوا عنقه .

(ثم تلفت الى الرجل فى شماتة قائلا) : لتعلم أينا القتول الخذول ؟ أنا أم أنت ؟!

الرجل : انى أحسبك أنك لن تموت مقتولا يا حجاج .

الحجاج : ولم أيها المتنبئ ؟

الرجل : لأنى سمعت الصالحين من أمثال الحسن البصرى وسعيد بن جبير يدعون الله ألا يميتك مقتولا ، وألا تموت الا على فراشك .

الحجاج : (مبتهجا) الحسن وسعيد يدعوان الله أن أموت على فراشى ؟ !

الرجل : أجل يا حجاج ، ليدخر الله عذابك كله الى الآخرة ، وهو أشد وأخزى .

الحجاج : (هائجا) اقتلوا الملعون . أذهبوا به الى الجلاد .

أحد الحاشية : انه يستحق .

ثان : هذا أقل ما يجزى به مثله .

آخر : وجزاء سيئة مثلها .

(يدخل من المتهمين شيخ من بنى تميم وشاب من بنى بكر)

الحجاج : (للشاب) أمؤمن أنا أم كافر يا بكرى ؟

الشاب : أتريدنى كافرا أم مؤمنا ؟

الحجاج : (فى صرامة) لا مكان للجدل . كافر أم مؤمن ؟

الشاب : بل كافر .

الحجاج : (فى خبث) لكن الشيخ التميمى لا يرضى بالكفر !

الشيخ : أعن نفسى تخادعنى يا حجاج ؟ والله لو كان شئ أعظم من الكفر لرضيت به حتى أنجو من سيفك . (فضحك الحجاج وأمر بتخليه سبيله) .

(ثم يقدم اليه رجل)

الحجاج : على دين من أنت ؟

الرجل : على دين ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين .

الحجاج : اضربوا عنق هذا الكذاب

(ثم يقدم رجل آخر)

الحجاج : على دين من أنت ؟

الرجل : على دين الشيخ يوسف !

الحجاج : أما والله لقد كان صواما قواما . حل عنه يا غلام .

(الغلام يفك قيد الرجل فيدنو من الحجاج ويقول له فى تحد) :

الرجل : يا حجاج : سألت صاحبى : على دين من أنت ؟ فقال : على دين ابراهيم حنيفا ، فأموت به فقتل . وسألتنى نفس السؤال فقلت : على دين أبيك الشيخ يوسف ، فقلت : أما والله لقد كان صواما قواما . وأمرت بتخلية سبيلى .

الحجاج : (يهز رأسه) نعم نعم .

الرجل : والله يا حجاج لو لم يكن لأبيك من السيئات الا أنه ولد مثلك لكفاه ذلك شرا .

(الحاشية ينظر بعضهم الى بعض فى دهشة وذهول وهمهمة) .

الحجاج : (فى هياج وانفعال) اقتلوه . اقتلوا الخبيث الملعون اضربوا عنقه .

(ثم يدخل شاب عليه سيما الصلاح اسمه ثابت) .

أحد الحاشية : (هامسا فى اذن الحجاج) هذا من تلاميذ سعيد ابن جبير !!

الحجاج : أنت من تلاميذ الشيخ الضال المضل سعيد بن جبير ؟!

ثابت : لا

الحجاج : أو تنكر صلتك به ؟

ثابت : الشيخ الذى ذكرته لا أعرفه ، انما أعرف الشيخ الصالح المصلح العالم المجاهد سعيد بن جبير !!

الحجاج : الخارج على الخلافة ، والساعى فى الفتنة ، صالح مصلح أيها الجاهل المنافق ؟

ثابت : من خرج على دين الله حق للناس أن يخرجوا عليه . والفتنة حقا هى اضطهاد العلماء والصالحين وتعذيبهم بغير حق . ألم تقرأ يا حجاج قوله تعالى : " أن الذين فتنوا المؤمنين ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق " .

الحجاج : هذا علم سعيد بن جبير ؟

ثابت : بل هذا كلام الله وكلام رسوله .

الحجاج : والذى تحلف به ، لحصدنكم واحدا بعد الآخر حتى لا أبقى منكم باقية .

ثابت : أنت تحصد والله يزرع . فأنظر أين قدرة المخلوق من قدرة الخالق ؟ !

الحجاج : اقتلوا هذا المتعالم (ثم يلتفت اليه ويقول فى سخرية) : لعل شيخك الصالح المصلح ينفعك اليوم ؟ !

ثابت : النفع والضر بيد الله " ألا له الخلق والأمر " وعلى مثل هذا اليوم وطنا أنفسنا ... لقد تمت الصفقة على يديك يا حجاج !

الحجاج : أى صفقة أيها الجاهل المتعالم ؟

ثابت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة " وهذا يوم تسلم السلعة لنتسلم الثمن : الجنة يا حجاج " ومن أوفى بعهده من الله " ؟ ! .

الحجاج : لن تجد هناك الا النار . عجلوا به . أضربوا عنقه .

ثابت : " فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحياة الدنيا "

(يذهبون بثابت الى السياف)

الحجاج : من بقى من هؤلاء المارقين ؟؟

رئيس الشرطة : بقى عامر الشعبى ، ومطرف بن عبد الله .

وأما سعيد بن جبير فقد فر واختفى ما نعلم .

الحجاج : أو عجزتم بقضكم وقضيضكم عن تتبع ابن جبير والقبض عليه ؟

رئيس الشرطة : أيد الله الأمير . ان بلاد الخلافة واسعة ، وفى استطاعة أى انسان أن يهرب ويختفى أياما تطول أو تقصر ولكن لا بد من معرفة مخبئه ، والعثور عليه وفى القريب العاجل .

الحجاج : أبقوا الاثنين فى السجن حتى نظفر بثالثهم ، ولن يفلت ابن جبير من قبضتى . أنا الحجاج . أنا ابن يوسف !!

الفصل الثانى

(المنظر الأول)

(سعيد بن حبير مختفيا فى بيت أحد تلاميذه بمكة ، وقد جلسوا حوله فى صورة حلقة علمية) .

سعيد : بسم الله الرحمن الرحيم . نحمد الله ونصلى ونسلم على رسوله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه .

أما بعد ، فقد روى معاذ بن جبل عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال " لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ؟ وعن شبابه ! فيم أبلاه ؟ وعن ماله ! من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ وعن علمه ، ماذا عمل فيه " .

هذا الحديث ايها الأبناء يلقى تبعة جسيمة على حملة العلم ، فان الله سائلهم غدا عن علمهم ماذا عملوا فيه كما يسأل كل مكلف عن نعمه تعالى عليه : ماذا صنع بها ؟ .. نعمة الحياة ، ونعمة الشباب ، ونعمة المال ، وأخيرا نعمة العلم ، الذى ميز الله بها الانسان عن الحيوان . العلم يا أبنائى نعمة جليلة يمنحها الله من يشاء من عباده ، وشكر هذه النعمة : العمل بها وتعليمها للناس ، فمن علم وعمل بما علم ، فذلك هو العالم الربانى ، ومن علم علما فكتمه عن الناس وهم محتاجون اليه ألجم يوم القيامة بلجام من نار ، ومن علم ولم يعمل بما علم ، فمثله كمثل الحمار يحمل أسفارا ، ولهذا كان أخوف ما يخاف النبى صلى عليه وسلم على أمته من بعده : المنافق العليم .

أحدهم : (متعجبا) المنافق العليم ؟ كيف يكون المرء عليما ومنافقا فى الوقت نفسه ؟

سعيد : عالم اللسان ، فارغ القلب من خشية الله تعالى . عن على بن أبى طالب أن رسول

الله صلى الله عليه وسلم قال : " أما انى لا أتخوف عليكم مؤمنا ولا مشركا . فأما المؤمن فيحجزه ايمانه . وأما المشرك فيقمعه كفره . ولكن أتخوف عليكم منافقا عالم اللسان يقول ما تعرفون ، ويفعل ما تنكرون " . ذلكم يا أبنائى هو الذى امتلأ رأسه بالمعرفة ، وفرغ قلبه من الخشية .

تلميذ : وما علامة خشية الله ؟

سعيد : علامة الخشية لله أن تحول بينك وبين معصية الله .

تلميذ : وما الذى يعين المرء على خشية الله ؟

سعيد : ذكر الموت والآخرة ، فهو الذى يجلو صدأ القلوب ، ويخفف من غرور الانسان بالحياة الدنيا ، وقد ترك فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم واعظين : ناطقا وصامتا . فالناطق هو القرآن ، والصامت هو الموت ، وكفى بهما واعظين !! وانى لو فارقنى ذكر الموت خشيت أن يفسد على قلبى .

تلميذ آخر : هل يفهم من ذلك أن المؤمن يحتقر الحياة أو يكرها ؟

سعيد : لا يا بنى، ان كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة، فيه يعبد ربه، أو ينفع خلقه، أو يصلح نفسه، فالدنيا عنده مزرعة للآخرة، يبذر فيها اليوم ليحصد غدا.

(ثم يوجه الحديث الى الجميع) :

يا أبنائى! ان الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ومن هوانها على الله أن لا يعصى الا فيها، وأن أعداءه تعالى فيها يتمتعون ويتجبرون، وأولياءه وأحباءه يضطهدون ويشردون. فاياكم أن تلهيكم دنياكم عن آخرتكم، ان الله يعطى الدنيا من يحب ومن لايحب، ولكنه لا يعطى الدين الا من أحب، ولا دين الا بالعلم، ولا علم الا بالعمل، ولا عمل الا بالاخلاص. وانى أدعو ربى عز وجل أن يجعلكم ذخرا لى من بعدى، وأن يمدكم بتوفيقة ورعايته، حتى تكونوا من الذين يعلمون فيعملون، ويعملون فيخلصون، ويخلصون فيقبلون.

تلميذ آخر: كأنها يا ابا عبد الله وصية مودع!!

سعيد : أى والله. فمن يدرى! لعل هذا اللقاء هو آخر العهد بكم فى هذه الدار الفانية.

تلميذ: أطال الله حياة الشيخ وأدام النفع به.

سعيد: قد علمتم أن هذا الجبار قد بث عيونه وجنوده يبحثون عنى فى كل مكان، وما أراه الا مدركى، وما أراه ان أدركنى الا قاتلى.

الطلاب: (فى لهفة وجزع) نفديك بدمائنا وأرواحنا وما ملكت أيدينا.

سعيد: أن الموت نهاية كل حى، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره.

وطعم الموت فى أمر حقير ... ... كطعم الموت فى أمر عظيم

ولا أقول الا ما قال الصالحون : "ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين". وسأخبركم: أنى جلست يوما وصاحبين لى، فوجدنا حلاوة الدعاء فدعونا كل بما نفسه، فكلنا سأل الله الشهادة فى سبيله، فأما صاحباى فاستجاب الله لهما، وفازا بها، وأما أنا فأنتظرها وأرجوها.

تلميذ آخر: وكيف نسكت على هذا الطاغية الجبار؟

سعيد: يا بنى! ان لله أمرا لابد أن ينفذه، فقد ثرنا معشر الفقهاء على هذا الرجل، وانضممنا الى ابن الأشعث فى قتاله، تركنا الكتب وجهزنا الكتائب، وودعنا الأقلام، وحملنا السيوف، واستبدلنا بمداد العلماء دما الشهداء.. أردنا أمرا وأرد الله غيره، امتحانا لا يماننا وصبرنا، فقتل منا من قتل، وأسر من أسر، وفر من فر..

طالب: وهل على أهل الحق من جناح اذا غلبوا أمام طغيان الظالمين؟

سعيد: لا جناح ولا اثم ــ ان شاء الله ــ انما يكون الاثم اذا رضينا بالمنكر أو أعنا على ظلم. أما اذا سعينا واجتهدنا فهذا ما نملكه، ولا نملك النتائج. ان الله تعالى لا يسألنا: لم لم تنجحوا؟

ولكن يسألنا لم لم تعملوا؟

الطالب عمير: ولكن! أما لهذا من آخر؟ أيظل الحق كسير الجناح؟ يقتل دعاته ويعذب أهله وأنصاره؟! بينما الباطل يصعر خديه ، مختالا بعدده وعدته، يحكم فى الدماء والأموال والحرمات بما يريد، ولا معقب ولامعارض؟! ألسنا على الحق وهؤلاء الظلمة على الباطل؟!

سعيد: ثكلتك أمك يا عمير. أو فى شك أنت من ذلك؟ والله لو قطعونا اربا اربا، حتى تخطفتنا الطير، وتوزعتنا بطون السباع، ما شككنا أننا على الحق، وهم على الباطل.

عمير: فما بالهم ينتصرون وينتصرون؟ ونحن ننهزم وننهزم؟

سعيد: ويحك، انما ننهزم حقا يوم نشك فيما ندعو اليه من حق، اذا ثبت على حقه فى وجه الباطل المدجج بالسلاح فقد انتصر.. انتصر وان كان فى نظر قصار النظر مغلوبا مهزوما. هل أضرب لكم مثلا؟

ان أبرز مثل فى تاريخنا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة: يوم أخرج من داره وبلده مضطهدا مطاردا مستخفيا فى جوف غار معتم، ترى ماذا تعتبرونه فى هذا الموقف؟ هل كان منهزم أم كان منتصرا؟

(الطلاب سكوت لا يجدون جوابا)

سعيد: ما لكم لا تجيبون؟

أحد الطلاب: أى مؤمن يجرؤ على أن يصف رسول الله بالهزيمة وهو الذى أيده الله بنصره؟

سعيد: أصبت وأحسنت، فهل كان فى هذا اليوم منتصرا؟

(الطالب يرتبك ولا يحسن الاجابة)

سعيد: أما أنا فلا اعتبر هذا اليوم الا يوما من أيام النصر والعزة فى الاسلام. وما لى لا أفعل وقد جعله الله كذلك فى كتابه المبين، استمعوا معى الى هذا الخطاب الالهى: "ألا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا" فقد نصره الله اذن فى هذا اليوم، يوم الغار، فمن يجرؤ على أن يسمى الرسول منهزما فيه، وقد نصره الله؟.

أن عمر الفاروق الملهم قد لمح ببصيرته هذا المعنى الكبير فى يوم الهجرة فجعله مفتتح تاريخ الاسلام، وليس معقولا أن يبدأ تاريخ المسلمين بيوم انهزم فيه الاسلام.

عمير: معذرة يا استاذنا ، فلعلى أغضبتك بكلمتى. وانما قلت ما قلت، لأن الانسان خلق من عجل، وكلما رأيت المحن والآلام والنكبات تنزل بساحة المؤمنين الدعاة الى الله، ذهب الصبر، وضاق الصدر، وخاصة أنى أرى دعاة الباطل الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون، يعيشون فى نعيم وعافية، وقد أخذت الأرض لهم زخرفها وازينت، وظنوا أنهم قادرون عليها!

سعيد: مهلا يا بنى. ان المحن والآلام لا يد منها لحملة الرسالات، وورثة النبوات، ليبتلى الله ما فى صدورهم، وليمحص ما فى قلوبهم، وليميز بها الخبيث من الطيب. أما ما يسرح فيه أهل الباطل من نعيم وعافية، فانه مكر من الله بهم، واملأ منه لهم، حتى يقيم عليهم الحجة، ويقطع عنهم الأعذار، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما قال فى قوم من هؤلاء:"فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون. فقطع دابرالقوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين".

وان سنة الله يا بنى، هى مداولة الأيام بين الناس، فيوم لك ويوم عليك، ولكن المدار على العاقبة، والعاقبة للمتقين.
هل فهمت يا عمير واطمأن قلبك؟ أم لا يزال فى صدرك حرج؟

ان كان ذلك يا بنى، فأنك فى حاجة الى أن تقرأ القرآن من جديد، وأن تفتح له عقلك وقلبك، لتعرف كيف يبتلى الله عباده بعضهم ببعض. ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. ألم تقرأ أول سورة العنكبوت:"ألم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون". ألم تقرأ قوله تعالى فى سورة الفرقان:"وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون"؟!.
وقوله سبحانه فى سورة القتال:"ذلكم ولو يشاء الله لا نتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض". وفى السورة نفسها يقول:"ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم".
والله ما زال البلاء يترل بأصحابى من حولى وأنا فى عافية، حتى احتقرت نفسى، وظننت أن ليس لله فى حاجة حتى نزل بى البلاء، فيرجع الى الأمل أن أدرك أصحابى، وأنال حظا مما يناله الدعاة الى الله.
عمير: جزاك الله عنا ما يجزى به أئمة الهدى. لقد والله حببت الى البلاء.
سعيد: ان المؤمن يسأل الله العافية،ولا يتمنى البلاء، فاذا نزل به صبر صبر الأبطال.
(يدخل أحد الشرطة فجأة على سعيد وتلاميذه فيسألهم):
الشرطى: مكانكم. علمت أن فيكم هنا سعيد بن جبير، فأيكم هو؟
التلاميذ: (فى صوت واحد) أنا .
الشرطى: عجبا! كلكم سعيد بن جبير؟
التلاميذ: أجل! كلنا سعيد بن جبير.
الشرطى: سعيد بن جبير واحد أم عشرة؟! سعيد واحد منكم، فدلونى عليه واختصروا الطريق، والا أبلغت عنكم الوالى، فحقت العقوبة عليكم جميعا.
احدهم: أنا سعيد بن جبير.
آخر: لا تصدقه.. أنا سعيد.
ثالث: لا تصدقهما..أنا والله سعيد.
الشرطى:وتحلف بالله أنك سعيد؟!

سعيد: لا تصدقهم يا بنى. أنا سعيد، وهؤلاء تلامذتى. هل تظن سعيد بن جبير شابا؟! أن سعيدا فى السابعة والخمسين، وهؤلاء شباب كما ترى، فكيف تصدق أن أحدهم سعيد بن جبير؟!

الشرطى: هذا صحيح. كيف غاب عنى هذا؟

(ثم يلتفت الى الذى حلف منهم أنه سعيد):

كيف حلفت بالله يا هذا أنك سعيد؟ طالب علم وتحلف كاذبا؟!

التلميذ: ما حلفت كاذبا ولا عدوت الصدق فقط. قلت : أنا والله سعيد. وهذا حق.فانى ــ وايم الله ــ سعيد كل السعادة اذا فديت فقيه الاسلام سعيد بن جبير.

الشرطى: ما رأيت كاليوم فى الايثار والفداء. قاتل الله الحجاج، يتخذنا أدوات لايذاء المسلمين وتعذيب أهل العلم والدين، وسحقا لهذه الوظيفة السيئة..

(ثم يلتفت الى سعيد ويقول):

يا شيخ، انى والله تاركك، وانى لأرجو أن ألقى الله ويدى بريئة من القبض عليك، وتسليمك للظلمة الجبارين! وأنتم يا أبناء الشيخ. أناشدكم الله ألا تخبروا أحدا بأنى رأيتكم أو رأيتمونى، فأن الطاغية لو علم ذلك لم يكن لديه عقاب الا ذبحى.. الا ذبحى (ويشير الى رقبته) والله لولا أفراخ صغار أعولهم ما بقيت فى هذا العمل يوما واحدا.

اللهم عفوك ما بقيت فى هذا العمل يوما واحدا. اللهم عفوك وغفرانك (يسير الشرطى خطوتين ثم يعود فيقول):

الأفضل أن يترك الشيخ هذا البيت الى بيت بعيد عن أرجل الناس وأنظارهم، وعسى الله أن يعمى عنه أعين الظالمين.

أحد التلاميذ: الحمد لله. لايزال الخير فى هذه الأمة الى يوم القيامة، من كان يظن أن مثل هذا الشرطى يحمل مثل هذا القلب؟!

(يخرج الشرطى. ويلتفت سعيد الى تلاميذه)

سعيد: لقد أخجلتمونى أيها الأبناء الكرام بصنيعكم. وانى والله لأعجز من أن أشكركم، فأدع ذلك لربى يتولى جزاءكم عنى، انه غنى حميد.

يا أبنائى! ان الذين يجتمعون على الدنيا اليوم، يفترقون من أجلها غدا، وأن الرابطة التى لا تنفصم عراها، هى رابطة الدين، رابطة التقوى، فاحرصوا على أن تظل رابطتكم لله وفى الله عز وجل، فان ما كان لله دام واتصل. ألم تقرأوا قول الله تعالى:" الأخلاؤ يومئذ

بعضهم عدو الا المتقين" .
أستودعكم الله يا أبنائى.

(المنظر الثانى)
(سعيد فى بيت بعيد عن العمران فى أطراف مكة، فيدخل عليه صديق له هو أبو حصين).
أبو حصين: أتدرى يا أبا عبد الله ما قال والى مكة الجديد للناس فى المسجد؟
سعيد: ماذا قال؟

أبو حصين: قال: والذى نحلف به ونحج اليه، لا أجد سعيدا الا قتلته وهدمت داره. وقد أجلت لكم فيه ثلاثة أيام.
هكذا قال الوالى وهو يرغى ويزبد. وقد بلغنى أن رجلا دله على مكانك هذا، ولابد أنه مرسل فى طلبك. فأطعنى واخرج من هنا.
سعيد: يا أبا حصين، والله لقد فررت واختفيت، حتى استحييت من الله، فدعنى هنا حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا.
أبو حصين: والله انى لأراك كما سمتك أمك سعيدا. أستودعك الله.
سعيد: أستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه.
(يخرج أبو حصين، وبعد قليل يطرق الباب طارق، ويدخل رجل أرسله الوالى للقبض عليه).
الرجل: لقد عرف الوالى مكانك فارسلنى اليك، وأمرنى أن آخذك أذهب بك اليه، وانى أعوذ بالله من ذلك.
فالحق بأى بلد شئت وأنا معك.
سعيد: لقد فررت واختفيت حتى استحييت من ربى، وما قدره الله كائن.
الرجل: انما نفر من قدر الله الى قدر الله. وانى لا أخاف عليك بقدر ما أخاف على هذه الأمة، أن يحل بها سخط الله اذا قتلت علماءها. فأطعنى ولنخرج معا، كما خرج موسى فارا من فرعون" قال رب نجنى من القوم الظالمين" .
سعيد: (وقد أثر فيه كلام الرجل) ألك هنا أهل وولد؟
الرجل: نعم.
سعيد: اذن يأخذوهم يصيبهم من المكروه ما كان سيصيبنى .

الرجل: انى أكلهم الى الله.
سعيد: لا والله. لا أكون سببا فى ايذاء مسلم أبدا.. نفذ ما أمرت به، وسيجزيك الله بحسن نيتك.
الرجل: الوالى سيبعث بك الى الحجاج، وهو من تعلم عتوا واستكبارا وقسوة!!
سعيد: لتكن مشيئة الله. لا حرج عليك. نفذ ما أمرت به.
الرجل: لقد رضيت أن أكون رسول الوالى اليك، لأفر بك الى مكان أمين. فكيف تطاوعنى نفسى أن أضع الوثاق فى يديك وأسلمك لمن لا يرحم؟؟
سعيد: سيؤذى أهلك وأولادك بسببى، ولا تطاوعنى نفسى بذلك أبدا، ولو أصابنى ما أصابنى. افعل ما أمرت به هاك يدى فأوثقهما.

الرجل: (وقد ذرفت عيناه ـــ يتقدم فيوثق يديه ويقول) :لا راد لما قضاه الله، اللهم انك تعلم أنى لذلك من الكارهين. انا لله وانا اليه راجعون!

الفصل الثالث

(المنظر الأول)

(زنزانة فى سجن تضم فى أحشائها ثلاثة من الفقهاء: عامر الشعبى، ومطرف بن عبد الله، وسعيد بن جبير).
الشعبى: ماذا عندك هذا الصباح يا مطرف؟
مطرف: رؤيا رأيتها استبشرت بها خيرا، وأولتها أنى أخرج من هذا السجن الكئيب.
سعيد: (كالمعترض) ليس الخير دائما فى الخروج من السجن، أنما الخير دائما فى الثبات على الحق. ان يوسف الصديق عليه السلام خير بين الفاحشة وبين السجن فقال: "رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه".
الشعبى: ولكنه ليس السجن فقط يا أبا عبد الله، انه القتل.. انه الذبح!
سعيد: "ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون".
مطرف: أتريد أن تسلم رقبتك الى هؤلاء الطغاة وهم لا يخشون الخالق ولا يرحمون المخلوق؟!
سعيد: (مشيرا الى رأسه) وماذا على ابن جبير اذا فصل هذا عن هذا فى سبيل الله! (فى عنف وانكار) أنسيتم يا قوم ما يريده هؤلاء منكم؟ يريدون أن تعترفوا أمامهم أنكم

خوراج مارقون، وأنكم كفرتم بخروجكم عليهم، فهل تقرون بالكفر؟
الشعبى: يا أبا عبد الله"الا أن تتقوا منهم تقاة".
سعيد: وأنت يا مطرف تنوى أن تعترف أمام الطاغية بأنك كافر؟
مطرف: يا أبا عبد الله، ان فى المعاريض مندوحة عن الكذب.
سأقول كلاما ملفوفا على سبيل التوريه. أهرب به من الجواب الصريح.
فلماذا لا تصنع مثلما نصنع وتنجوا برأسك يا سعيد؟
سعيد: وما رأس سعيد فى رؤوس الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين؟ ألم ينشر نبى الله زكريا بالمنشار فرقتين؟ ألم يذبح السيد الحصور يحيى؟ ألم ترووا عن النبى صلى الله عليه وسلم :"أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"؟ ألم يمت عمر وعثمان وعلى والحسين رضى الله عنهم مقتولين ظلما؟

الشعبى: بلى.. وقد قلت كلمة الحق، بل قاتلت من أجلها.. ثم أراد الله لنا ما ترى.. فلا بد من الصبر، حتى تتهيأ لنا فرصة أخرى.
سعيد: سأظل على كلمة الحق أحيا بها وأموت عليها، وأتحدى بها جبروت الطغاة. والله غالب على أمره.
مطرف: وهبك قلت اليوم كلمة الحق صريحة مرة، فهل يزول جبروت الطغاة أو طغيان الجبابرة؟ وتنحل العقدة؟
الشعبى: كلا، سيقتل سعيد بن جبير، العالم الفقه وسيبقى الحجاج.. الطاغية الظالم، وستبقى دولة الظلم والطغيان كما هى.
سعيد: (فى غضب) ما هذا الذى أسمعه منكما؟ أمثلكما يقول هذا الكلام؟ متى كان الحرص على الحياة غاية الأنبياء وورثة الأنبياء؟ والله ان كل شهيد يسقط فى سبيل الحق ليزلزل الأرض تحت أقدام الطغاة. وقد يبقى الطغيان حينا من الدهر، ولكنه سيبقى مرتجف الأوصال محروما من الأمن والطمأنينة وراحة البال.
على أن شجرة الاسلام لا يرويها الا هذه الدماء التى تثبت أن الأمة لا تزال بخير، وأن فيها من يبيع نفسه لله طائعا مختارا.
(الشعبى ومطرف يتأثرا بحديث سعيد ولهجته القوية).
الشعبى: معذرة يا أبا عبد الله. فما نحن الا حريصون عليك وعلى انتفاع الأمة بك.
فالناس محتاجون اليك يا سعيد، محتاجون الى علمك وفقهك.

سعيد: يا شعبى، كما يحتاج الناس الى من يعلمهم الفقه، يحتاجون الى من يعلمهم الثبات على الحق فى وجه الجبابرة الطغاة.

مطرف: ما أرانا الا فى مقام دون مقامك يا سعيد. دعه يا شعبى فوالله لكأنى أنظر الى دم الشهادة يترقرق فى وجهه.

سعيد: "قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون".

(السجان يفتح الباب ويدخل ومعه ثلاثة . يغلق عليهم باب الزنزانة. الجميع صامتون).

(أحد الثلاثة يشق هذا الصمت، ويدنو من الشيوخ الثلاثة، ويوجه الى مطرف بن عبد الله هذا السؤال):

الرجل: أفتنى يا شيخ، نفع الله بك.

مطرف: هذان أماما الكوفة وفقيهاها يفيتانك.

الرجل: من هما؟ يرحمك الله!!

مطرف: أما هذا فسعيد بن جبير، وهذا عامر الشعبى.

سعيد: وهذا مطرف بن عبد الله.

الرجل: لا حول ولا قوة الا بالله! العلماء يسجنون ويعذبون! والفسقة الظلمة يسرحون ويمرحون.

(يوجه الرجل الى سعيد ويسأله):

أفتنى يا امام، لقد حلفت على امرأتى بالطلاق ثلاثا: أن الحجاج فى النار،فهل تطلق امرأتى؟

سعيد: سل الشعبى يجبك.

الرجل: (يتوجه إلى الشعبي) ما قولك؟

الشعبي: أيها الرجل، لئن كان الحجاج فى الجنة بعد كل الذي فعله فوالله ما يضرك أن تعيش مع امرأتك على حرام؟!

الرجل: شفيت والله صدري.

(يتقدم آخر ويسأل الشعبي):

الرجل الآخر: أجبني يا إمام أيدك الله .هل الحجاج كافر أم مؤمن؟؟

الشعبي: (ساخرا) الحجاج مؤمن.

الرجل الآخر: (منكرا) الحجاج الغاشم الطاغية الجبار قاتل المسلمين وعدو الصالحين،

ومذل الأحرار وفرعون العرب، مؤمن؟؟ !!

الشعبي: نعم مؤمن بالجبت والطاغوت.. وكافر بآيات الله!

الرجل: أما هذا فنعم.

(يدخل السجان، فيجد القوم صامتين مطرقين)..

السجان: ما لكم سكتم حين دخلت عليكم؟

سعيد: رحم الله امرءا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم.

السجان: أيها الشيخ، انى أراك من الصالحين ، فما تقول فى أعوان الظلمة!

سعيد: أعوان الظلمة كلاب جهنم يعوون فيها كما تعوى الكلاب.

السجان: ما تقول فى ؟ أأنا من أعوان الظلمة؟

سعيد: لا، أعوان الظلمة مثل من يغسل لك ثوبك، ويطهو لك طعامك... وو

السجان: (مستغربا) وأنا؟!

سعيد: أنت؟.. أنت من الظلمة أنفسهم. ألست تساهم في تعذيب خلق الله؟! إن الله تعالى حين لعن فرعون وهامان، لعن معهما جنودهما. قال تعالى:" فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين" وقال:"إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين".

السجان: ولكنى لا أستطيع أن أقول: لا!!

سعيد: لو لم يعرفوا فيك القسوة ما ولوك هذا الأمر.

السجان: انى أتقاضى على ذلك أجرا، لولاه جاع أولادي.

سعيد: رزق الله في كل مكان، فان شئت فابحث عن عمل آخر، ولا تشارك في ظلم . ومن صدق الله، صدقه الله "ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه"

السجان: (يرفع يديه الى السماء) اللهم أنك تعلم أنى أعمل سجانا عند هؤلاء الحكام وقلبى يلعنهم. اللهم انى أعوذ بك أن أكون ظالما أو عونا لظالم. اللهم اغفر لى ما مضى واجعل لى مخرجا مما بقى.

(المنظر الثانى)

(الحجاج فى مجلس الامارة متكئا على أريكته، وعلى يساره بعض حاشيته. يدخل رئيس

الشرطة).
الحجاج: أحضروا المتهمين الثلاثة واحدا بعد الآخر.
(يدخلون عليه مطرف بن عبد الله)
الحجاج: عرفت ما كتبه أمير المؤمنين فى شأنكم؟
مطرف: عرفت.
الحجاج: أصلح الله الأمير، أن الذى شق العصا، ونقض العهد وخان الأمانة، وفارق السنة، وأخاف المسلمين، لجدير بالكفر.
الحجاج: (لمن حوله فى نشوة المنتصر):
لقد اعترف بكفره ونجا، خلوا عنه.
الحاشية: (بعض الحاشية لبعض في خفوت) والله لكأنما يعرض بالأمير! (يدخل الشعبي والحاجب يسر له في أذنه) اعترف له بأنك كافر وانج برأسك.
(وكان الحجاج خافضا رأسه لم يشعر به، فلما رفع رأسه رآه).
الحجاج: وأنت يا شعبي فيمن أعان علينا وألب وسعى في الفتنة؟
الشعبي: أصلح الله الأمير. لقد نصحني الناس بأشياء أقولها لك، أرضيك بها وأسخط الله عز وجل، ولست فاعلا. ولكنى أصدقك القول: لقد خبطتنا أيها الأمير فتنة عمياء، لم نكن فيها بررة أتقياء ، ولا فجرة أقوياء، حتى كان من أمرنا ما كان.
الحجاج: (لحاشيته) صدق. والله ما كانوا بررة أتقياء، فتروعوا عن قتالنا، ولا فجرة أقوياء فيقدروا علينا. انطلق يا شعبى، لقد عفونا عنك.
هاتوا شيخ السوء، ورأس الفتنة.
(يدخل سعيد بن جبير)
الحجاج: (متجاهلا) من أنت؟
سعيد: سعيد بن جبير .
الحجاج: بل شقى بن كسير.
سعيد: أمى كانت أعلم باسمى واسم أبى منك.
الحجاج: شقيت وشقيت أمك.

سعيد: أنما يشقى من كان من أهل النار، فهل اطلعت على الغيب.
الحجاج: لماذا فررت واختفيت هذه المدة كلها؟

سعيد: أقول ما قال موسى عليه السلام: "ففرت منكم لما خفتكم" .

الحجاج: (محتدا) أتعرض بى ؟

سعيد: (هادئا) بل أقرر واقعا.

الحجاج: أكافر أنت أم مؤمن؟

سعيد: (فى قوة) ما كفرت بالله منذ آمنت.

الحجاج: تدعى الايمان أيها المنافق !! والله لأوردنك حياض الموت!

سعيد: (فى ثقة وارتياح) اذن أصابت أمى حين سمتنى سعيدا. فأى السعادة أعظم من الشهادة فى سبيل الله وجوار سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب؟

الحجاج: (ساخرا ومهددا) لن تجاور الا الخوراج والمارقين ولأبدلنك بالدنيا نارا تلظى.

سعيد: (واثقا) لو علمت أن ذلك بيدك، لا تخذتك الها من دون الله!

الحجاج: (مغتاظا) ويلك يا شقى!!

سعيد: انما الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار.

(يتجه الحجاج بالحديث الى ناحية أخرى)

الحجاج: ما قولك فى الخلفاء؟ وأيهم أفضل؟

سعيد: (يسد هذا الباب عليه):

لست عليهم بوكيل، وما أنا عليهم بحفيظ.

الحجاج: أيهم أحب اليك؟

سعيد: أرضاهم لخالقه عز وجل.

الحجاج: ومن منهم أرضاهم لخالقه؟

سعيد: علم ذلك عند من يعلم سرهم ونجواهم.

الحجاج: أبيت أن تصدقنى؟!

سعيد: بل لم أرد أن أكذب عليك.

الحجاج: وما تقول فى معاوية؟

سعيد: لقد شغلنى أمر نفسى عن تتبع أعمال الرجال والحكم عليهم.

الحجاج: تفر من الجواب؟!

سعيد: طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.

الحجاج: ما رأيك فى اقتتال على ومعاوية؟

سعيد: تلك دماء طهر الله منها أيدينا، فلنطهر منها ألسنتنا.

الحجاج: وما تقول فى؟

سعيد: أنت أعلم بنفسك!

الحجاج: ولكنى أريد أن أعرف رأيك.

سعيد: اذن يسوؤك ولا يسرك.

الحجاج: ولو.. أريد أن أعرفه.

سعيد: أعفنى.

الحجاج: لا عفا الله عنى أن أعفيتك.

سعيد: ان كان ولابد فانى لأعلم أنك مخالف لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهدى الراشدين من خلفائه. ترى من نفسك أمورا تريد بها حفظ هيبتك وتمكين سلطانك وهى تقحمك الهلكة وسترد غدا على الله فتعلم.

الحجاج: ألم أرسل الجيوش لتقاتل فى سبيل الله؟ ألم أبعث محمد بن القاسم الثقفى لفتح بلاد السند؟ ألم أوطد دعائم الأمن فى ديار العراق؟

سعيد: بلى.. ولكنك جبار فى الأرض، مسرف فى الدماء، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :"لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم" فكيف بمن قتل الألوف من المسلمين؟

انك تريد يا حجاج أن تتخذ عباد الله عبيدا لك يطيعون فى المعروف والمنكر، ويقولون فى الحق والباطل سمعنا وأطعنا. وديننا لا يقر الطاعة الا فى المعروف ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

الحجاج: (كالمعتذر) أو تريد أن نترك الطامعين والمتربصين حتى يفتكوا بنا؟ لابد أن نتغدى بهم قبل أن يتعشوا بنا.

سعيد: ولكن دين الله لا يعرف هذه الوجبات المنكرة. الغداء بقوم والعشاء بآخرين! لو تريد الآخرة يا حجاج لم تؤثر عليها سلطان ان بقى اليوم زال غدا.

(الحجاج يظهر التجلد، ويكظم غيظه، ويتجه بالحديث وجهة أخرى):

الحجاج: أنا أحب الى الله منك.

سعيد: الله أعلم بالغيب، وستوفى غدا كل نفسى ما كسبت ، وهم لا يظلمون.

الحجاج: أنا مع امام الجماعة، وأنت مع امام الفرقة والفتنة.

سعيد: الجماعة ما وافق الحق، وان كنت وحدك، كما قال ابن مسعود رضى الله عنه.

والفتنة هى اضطهاد الناس فى دينهم.

الحجاج: هذه آراؤك الضالة التى تلقنها لتلاميذك.

سعيد: بل هو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخذه عنه أصحابه، ورويناه نحن عنهم.

الحجاج: ألا ترى ما نجمع لأمير المؤمنين؟

سعيد: لم أر شيئا.

الحجاج: يا غلام، أحضر من الذهب والفضة والكسوة والجوهر.

(فأحضره فوضعه بين يدى الحجاج)

الحجاج: ما قولك فى هذا؟

سعيد: هو حسن أن قمت بشرطه.

الحجاج: وما شرطه؟

سيعد: أن تأخذه من حله، فتضعه فى حقه، ولا تبخل به عن أهله، والا ففزعة واحدة يوم القيامة تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها.

الحجاج: دعنا من هذا كله، يقولون انك لم تضحك قط!! فما سر هذا؟

سعيد: لم أجد فى الحياة مايضحكنى!! وكيف يضحك امرؤ طريقه من فوق جهنم؟ لا يدرى أيمر من هناك ناجيا أم يسقط فيها جاثيا؟! "وأن منكم الا واردها، كان على ربك حتما مقضيا".

الحجاج: فما بالنا نحن نضحك؟

سعيد: لم تستو منا القلوب. وكل ميسر لما خلق له.

الحجاج: ألم تسمع الى العود والناى؟!

سعيد: لقد شغلنى أمر آخرتى عن لهو الحديث.

الحجاج: أحضروا العود والناى.

(يحضر الناى فينفخ فيه نافخ فيبكى سعيد)

الحجاج: ما الذى يبكيك ؟! انما هو اللهو والطرب!

سعيد: بل هو الحزن والكمد. لقد ذكرنى هذا النفخ أمرا عظيما :"يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا".

"ونفخ فى الصور فاذا هم من الأجداث الى ربهم ينسلون".

الحجاج: أتخدعنى برقائق الكلام لأعفو عنك؟

سعيد: (شامخا) ان كان العفو من الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر يا حجاج.

الحجاج: (فى غضب) فاختر لنفسك أى قتلة تريد أن أقتلك!!

سعيد: (فى صرامة) بل أختر لنفسك أنت يا حجاج. فوالله ما تقتلنى قتلة الا قتلك الله مثلها فى الآخرة.

الحجاج: والله لأقلتلنك قتلة لم أقتلها أحد قبلك، ولا أقتلها أحدا بعدك!!

سعيد: اذن تفسد على دنياى، وأفسد عليك آخرتك.

الحجاج: يا غلام. السيف والنطع.

(يحضر الغلام النطع والسيف)

الحجاج: خذوه.

(يأخذه الغلام. فلما ولى ضحك، فأخبره بعض جلسائه أن سعيدا ضحك).

الحجاج: ردوه.. ألم تقل أنك لم تضحك قط، فما الذى أضحك الساعة؟

سعيد: أضحك من جراءتك على الله تعالى، ومن حلم الله عليك.

الحجاج: (مغيظا) اقتلوه.. اقتلوا هذا الرجل.

سعيد: (وقد اتجه الى القبلة):

"وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا، وما أنا من المشركين".

الحجاج: وجهوه الى قبلة النصارى، الذين تفرقوا واختلفوا بغيا بينهم، فانه من حزبهم.

سعيد: (مبستما):

" ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله".

الحجاج: (يشتد غيظه) كبوه لوجهه. اجعلوا وجهه الى الأرض.

سعيد: " منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى".

الحجاج: أذبح عدو الله، فما أسرع لسانه بالقرآن.

سعيد: أما أنى أشهد أن لا اله الا الله، وأن محمدا عبده ورسوله. خذها منى حتى تلقانى يوم القيامة يا حجاج.. اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدى.

(المنظر الأخير)

(الحجاج نائم على سريره، مستغرق فى نومه، وفجاة يفزع ويصيح):

الحجاج: انقذونى!انقذونى! انقذونى! خلصونى منه! انه يريد أن يخنقنى.. يريد أن يقتلنى!.
(يدخل عليه غلام له)
الغلام: من هو يا سيدى؟ لا أحد هنا!
الحجاج: أنه هو .. هو .. س .. س .. سعيد.
الغلام: سعيد.. من؟!
الحجاج: ويلك! سعيد بن جبير. يأخذ بخناقى.. سيقتلنى.
الغلام: سعيد قتل من أسبوعين.
الحجاج: أنت تخرف. انه لم يمت.. لقد رأيته الساعة كالجمل الهائج .. يريد أن يلتقمنى.
الغلام: هذه أوهام وأضغاث أحلام يا سيدى..سعيد مات .. قتل .. أنت قتلته.
الحجاج: لا ..لا أنا لم اقتله .. أنا لم أقتله .. هم الذين قتلوه..
الغلام: أنت أو هم . المهم أنه قتل ومات ودفن.
الحجاج: يا أحمق!.. تريد أن تقنعنى بموت رجل كان على رأسى منذ لحظات، وقبضته على عنقى؟!
ويل للحجاج! لم يعد يصدقه أحد حتى غلامه . أغلق على الباب ودعنى!.
(يخرج الغلام ثم يقف ويقول):
الغلام: سبحانك اللهم! تعز من تشاء وتذل من تشاء . وأن ذل الحجاج اليوم لبرهان على وجودك وعدلك يا أحكم الحاكمين !
(يسلتقى الحجاج على سريره .. وما هى الا لحظات حتى يظن فى أذنه الصوت):
ــ بل اختر لنفسك أنت يا حجاج! فوالله ما تقتلنى قتلة الا قتلك الله مثلها فى الآخرة .
(يفزع الحجاج مرة أخرى)
الحجاج: آه .. أرجوك .. أرجوك .. لا تقتلنى.. لا تقتلنى .. آه .. آه..

(يدخل الغلام)
الغلام: ما بك يا سيدى؟! هون عليك.. لا تخف.
الحجاج: كيف لا أخاف؟! أن شبحه لا يفارقنى .. انه أمامى ها هو. الا تراه؟
الغلام: (بصوت خافت) يا عجبا!! الحجاج الذى أخاف الألوف ، يخاف اليوم من شبح.
الحجاج: (وقد سمعه) أنه ليس شبحا يا غبى. انه سعيد بشحمه ولحمه. انه مصر على قتلى.

الغلام: (ساخرا) : ولم هذا الخوف من القتل ؟! طالما قتلت الألوف، فذق اليوم طعم الذى أذقته للناس.

الحجاج: (مغضبا) : أتشمت بي يا وغد ؟ لئن عشت لأجعلنك نكالا وعبرة.

الغلام: أجبار وأنت على فراش الموت؟! تواضع لله ساعة قبل موتك .. ولكن هيهات. وصدق الله العظيم " ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون".

(الحجاج يسقط من على السرير)

الحجاج: آه .. مالى ولسعيد بن جبير؟! مالى ولسعيد بن جبير؟!

(يشتد فزعه ، ثم يشهق شهقة فيموت)

(وعندئذ يسمع صوت لا يرى صاحبه):

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

" ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، أنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعى رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء".